دراسة ونقد

ديوان محمد ابو سنة
حديقة الشتاء

بقلم الدكتور محمد عيد

— ١ —

هذا هو الديوان الثاني للشاعر « محمد أبو سنه » بعد ديوانه الاول « قلبي وغزالة الثوب الازرق » وبين صدور الديوانين مدى زمن قصير، ولهذا دلالته بالنسبة للشاعر وشعره ، اذ يواصل الشاعر دوره الواعد ليحتل مكانه بين شعراء جيله الشباب وليؤكد معهم — وفي طليعتهم — حركة الشعر الجديد بعد ان زاد طريقة شعراء الجيل الذي سبقه، فتحملوا مسئولية الدهشة والانزعاج والمعارضة التي تلقى بها المثقفون العرب والشعراء التقليديون — بصفة خاصة — الحركة الشعرية الجديدة التي ما زالت في حاجة حقيقية للانتاج الاصيل الخصب كديوان « حديقة الشتاء » والى الامكانيات المتفتحة الجديدة التي تتاهب وتنطلق وتواصل الابداع مثل : « محمد أبو سنه » .

ولست أنوي في هذه الدراسة ان أقدم موازنة بين مرحلتين اوبين ديوانين للشاعر فان ذلك في حاجة الى جهد مستقل لم يحن اوانه بعد ، اذ يقصد به تحديد مراحل تطور الشاعر وفنه ، ومن السابق لاوانه بالنسبة لشاعرنا ان يتحمل الان هذه الموازنة فهو في بداية رحلته الفنية الفنية تهديه موهبته وثقافته الى ما يقول ، ومن الظلم ان يقال له الآن (لقد قلت من قبل ولم تقل من بعد) او العكس ،فما زالت (بعد) بالنسبة له طليقة مملوءة بالضوء .. والآمال .. والوعود .

انما الذي أنوي ان اقدمه هو حصيلة قراءة يقظة متانية للديوان ثم معاودة للقراءة ايضا بنفس اليقظة والتاني، مع تنحيه الافكار المسبقة والنظريات والمذاهب التي تلون هذه القراءة فتوجهها احيانا الى غير ما قصده الشاعر ، حتى اتيح لي ان اتودد الى شعر الشاعر وان اخالطه ثم اعايشه واتعرف عليه ، ثم تحدثت عما عرفت في هذا المقال .

وتتناول هذه الدراسة امورا اربعة هي على التوالي : دور العبارات الجاهزة — الحكم والامثال — في الديوان — ومظاهر الانطواء واليأس والخوف في بعض القصائد ثم قضايا الشعب وبخاصة حريته الفردية والاجتماعية التي عبرت عنها اروع قصائد الديوان واخيرا لغة الديوان واسلوبه ووزنه العروض .

— ٢ —

هناك بعض التجارب التي يتشابه في ممارستها الناس والاشياء، فاذا قدر لاحد الواعين ان يلاحظ تلك المشابهة صاغها في عبارة واحدة تستخدم كلما جدت ظروف مشابهة حيث تشيع بين الناس فيتناقلونها معجبين بها محتفين ، وربما نسيت ظروفها ومن قالها وربما لا تنطبق بطريقة حاسمة على كل شيء مشابه ، لكنها مع ذلك تبقى شائعة بين الناس تتناقلها الالسنة ، وتستخدم في كثيرمن المواقف والظروف ، وقد اطلق على هذه العبارات في تراثنا القديم اسم « الحكم » وما يزال بعض الادباء في عصرنا يؤلف ما يقرب من الامثال والحكم ليذيل بذلك فكرة قصيرة او مقالا صحفيا ، ومن ذلك ما جمعه اخيرا الاستاذ « انيس منصور » في كتاب بعنوان : (قالوا) ، وهذا ما اخترت له في الحديث هنا اسم «العبارات الجاهزة » .

وفي « حديقة الشتاء » تتناثر العبارات التي تعبر عنها احيانا مقاطع كاملة تكون هي الهدف من القصيدة كلها ، وقد يصرح بتلك العبارات بالفاظها وقد لا يصرح بها ولكن لا يخطئها التأمل اليسير لبعض القصائد ، فلنقدم اولا نماذج لتلك الطريقة في الديوان ، ليستبين لنا الراي فيها بعد ذلك .

في قصيدة (آخر ازهار الموسم ص ١١) لقاء حدث مصادفة بين اثنين كان لهما ود قديم ، حيث دارت بينهما احاديث الود الاولى ، وفاضت بهما اللهفة والاحلام لكن ذلك كله فشل في ابتعاث حرارة العاطفة المتبردة ، حيث غمرها شبح الهجر الاسود والشتاء المظلم ، يقول :

وتوقفنا
كنا مشدودين الى ظلينا
تعجز فينا الرغبة والاشواق
لا يخطو الواحد نحو الآخر
كل يعشق نفسه
لا يهب اخاه
أكثر مما يعطيه

فالقصيدة كلها تهدف الى هذا المقطع بالذات ، ومضمون هذا المقطع ان الود الصادق تدمره « الانانية والحرص » فكل يعشق نفسه ولا يعطي الا مقدار ما يأخذ وهذا المعنى تلخصه العبارة الشائعة التي تقول (الاناني من يحب نفسه ، ولا يعطي الا قدر ما يأخذ) .

وقريب من ذلك ما جاء في قصيدة اخرى بعنوان (غزاة مدينتنا ص ٢٨) حيث جاء فيها نصا عبارة اخرى شائعة عن الانانية هي(انا ومن بعدي الطوفان) وهي عبارة مشهورة استخدمت في القصيدة للدلالة على احد اسباب التخاذل والفشل الذي يؤدي بالشعب الى الضعف والخضوع للغزاة — يقول :

حين اجبنا الفرقى بالضحكات
حين جلسنا نصخب في أعراس الجن
حين اجاب الواحد منا
ما دمت بخير
فليفرق هذا العالم طوفان

فالبيتان الاخيران هما نفس العبارة المشهورة التي تدل على الانانية والحرص على المصلحة الشخصية لولا ضرورة الوزن التي الجأت الشاعر الى زيادة بعض الكلمات او تغييرها والابيات قبلها تحتوي على نفس المعنى ، والمقطع كله هو هدف القصيدة كلها التي أظن ـ ان لم يجانبني الصواب ـ ان الشاعر قالها بعد ان تعشق تلك العبارة ومعناها .

في قصيدة (حتى يطلع قمر الحب ص ١٤) قدم لها بعبارة « بيرون » (ان هذا العالم شيء تافه ان اكتسب او فقد) ثم جاءت القصيدة كلها تحت عناوين ثلاثة هي على التوالي (موسيقى الاشياء ـ الحكمة المنهزمة ـ ليس صحيحا يا بيرون) وقد جاءت القصيدة كلها لتعبر عن عبارات ثلاث شائعة ، اظن انها ـ او قريبا منها ـ جالت في نفس الشاعر قبل ان ينظم قصيدته .

يقول في نهاية المقطع الاول :
في جوف الاشياء
موسيقى لا تدركها الا الروح

وهذا معنى العبارة المشهورة (الاشياء بما نحسه نحوها لا بما نراه فيها) .

ويقول في نهاية المقطع الثاني :
والعالم لا يحفل أبدا بالحكمة
القوة تحكم هذا العالم

وهذا المعنى نتيجة التأمل في العبارة المشهورة (الحق فوق القوة) ثم معارضتها بعكسها .

ويقول في نهاية المقطع الاخير :
لكن ليس صحيحا يا بيرون
أن العالم شيء تافه
وبه هذا الالم الفادح

فقد عارض كلام « بيرون » بمعنى عبارة اخرى مشهورة هي (لا حياة بلا ألم) ومن البين بعد هذا العرض الموجز للقصيدة انها قامت أصلا في ذهن الشاعر حول عبارات جاهزة مشهورة فقدمها شعرا في قصيدة طويلة استغرقت ثماني صفحات من الديوان .

وفي قصيدة (مرثية القلب الميت ص ٢٣) تعبير عن صراع مؤسف لقلب تعلق بالاوهام والامنيات الحلوة حيث لا تذبل الاشجار ولا تبطىء الانهار ولا تسقط من الليل الاقمار ولا يكذب الحب او ينتهي ، لكن الواقع لا يتفق مع تلك الاحلام ، فكانت نتيجة الصراع حتمية وهي الهزيمة المرة لها والانسحاق تحت وطأة هذا الواقع ، فعاد القلب اغنية مخنوقة والما صامتا ، بل ميتا يرثي وقبرا لكل تلك الاحزان القاتلة .

وفي تلك القصيدة المهومة جاءت تلك الابيات :
كنت بريئا لا تدري ان الايام
لا تترك من يصعد
تمتلىء يداه بضوء النجم
لا تترك نهرا يجري متجها نحو مصبه
لا تترك حبا يختبىء سعيدا في مقلة عاشق

وكما قالوا : لا يبقى الراكب فوق جواده .

وبيت القصيد هو البيت الاخير ، حيث يعبر عن الحكمة الشعبية (الدنيا ما تخلي الراكب راكب ولا الماشي ماشي) واحتوت تلك الابيات ايضا حكمة اخرى بنفس المعنى هي (أسهل ان تصعد القمة لكن من الصعب ان تبقى هناك) واظن الشاعر قد اعجب بهذا المعنى ، فتمثله ثم غناه بتلك القصيدة التي تعبر عن المرارة والالم والضياع .

ويكفي هذه النماذج السابقة للدلالة على مدى استجابة الشاعر لما يعجبه من عبارات جاهزة وان كان هناك غيرها ايضا ، فقصيدة (اسطورة ص ٥٦) تعبر عن حكمة معناها (حين نصل لما نريد يفر من بين ايدينا) وقصيدة (مأساة بطل تراجيدي ص ١٠٠) تعبر عن فكرة شائعة اظنها (اما ان آخذ دوري الحقيقي واما ان ادمر كل شيء) .

لكن .. ماذا في استخدام هذه الطريقة في الشعر ؟؟

ان بعض الشعراء الجدد ـ ومنهم ابو سنة ـ تشيع بينهم فكرة ارتباط الشعر بالناس .. بالجمهور .. بالشعب ، ويترتب على هذا الفهم ان يحاولوا استخدام العبارات الشائعة على ألسنة الناس او معانيها لتكون موضوعا لقصيدة كاملة او لمقطع من مقاطعها بقصد التعبير عن افكار الناس والتودد اليهم .

وفي هذا بعض الحق ، ولكن المآخذ التي توجه لهذه الطريقة قد تؤدي الى العكس تماما ، فتبعد الشاعر عن فنه وعن جمهوره جميعا ، لان الشاعر اذا بدا بعبارة جاهزة ، فقد صادر نفسه ،اذ دور حول فكرتها المسلمة ليصوغها شعرا ، ويبتعد ـ دون أن يدري ـ عن المشاكل الحقيقية الحية لدى جمهور الناس ، ويدفعه ذلك بالطبع الى التجريد في صياغة الفكرة ، ما دام قد الزم نفسه بصياغة المعنى المجرد الذي حملته العبارة ، بل يدفعه في كثير من الاحيان الى افتعال تجربة ذهنية « مفصلة » على مقاس العبارة ، وكل ذلك يبعد به عن الصدق والارتباط بآمال الناس وآلامهم ، والتأثير فيهم .

فاذا اضفنا لذلك ان العبارات الجاهزة التي لبست ثوب الشعر في الديوان موضع الدرس كان معظمها مما يتردد على ألسنة خواص المثقفين ـ كما هو واضح في النماذج السابقة ـ ازدادت المسافة اتساعا بين ما قصده الشاعر وما أدى اليه قصده ، وكانت حصيلة ذلك كله خسارة اكيدة للجهد وللفن وللناس جميعا .

ـ ٣ ـ

النغمة الاسيانة ، والحزن الرقيق او الغليظ ، والانطواء على النفس والاكتئاب ، والاحلام المجنحة ، والنشيج الهامس او الصاخب ، واليأس الذي قد يصل الى حد القنوط ، والحديث عن الموت والضياع والاشجان ، ورؤية الاشياء مغلفة بالضباب والسحاب والدموع واستعذاب القلق والالم ، وتوقع الكوارث والفشل ـ كل ذلك من هموم المراهقة في حياة الناس ـ كل الناس ـ وهي من هموم جيلنا بوجه خاص ، ووراء ذلك طبيعة المرحلة التي يمر بها المراهق ، وما يصحبها من تغير وتطور في الجسم والنفس جميعا ، ومن تصور وردي للمثل والاحلام ، تلك التي تصطدم في بلادنا بالواقع الخشن ، والصراع المر بين افراد المجتمع بحثا عن اللقمة والنجاة والامن ، في ظل ظروف طبقية بشعة ونفاق اجتماعي مخيف ، وبهلوانات سياسية بضاعتها التزييف والتهريج واستنزاف نخوة الامة وحيويتها حتى النخاع .

لذلك فانه ليس من الغريب ان يستجيب المرء في بواكير الشباب لاحزان جيله ، وان يضيف لذلك من التهاويل ما يصوره له خياله واوهامه ، فيأسى دون أسى ويكتئب دون كآبة ، ويتباكى دون بكاء ، وكل ذلك يبقى مقبولا ما دام في اطار مرحلته ، مرحلة الفجاجة والمراهقة والاحلام ، فاذا جاوز هذه المرحلة الى النضج والفهم ، انحسر ذلك الضباب تحت سطوة الواقع بمرارته وبشاعته وزيفه فيتعرف طريقه في زحام الحياة ، ويجالد اسباب ارهاقه وارهاق مجتمعه محاولا التغيير ما استطاع وما استطاعت ظروفه ، فان ظل تحت تأثير الكآبة والضياع والاوهام ، فتلك ردة مدمرة واسلوب صبياني ردىء .

وديوان (حديقة الشتاء) ديوان ناضج اصيل بصفة عامة ، يحتل به صاحبه مكانه في الطليعة الواعية الملتزمة ، وقد خلا من تهاويل المراهقة والاحلام لولا بقايا متناثرة فيه ترفع رأسها مرة هنا ومرة هناك، ويرتفع نشيجها احيانا الى حد الصراخ ، وابرز ما يدل على ذلك في الديوان القصيدة التي حمل الديوان كله عنوانها (حديقة الشتاء) وقصيدة اخرى بعنوان (مرثية القلب الميت) .

فالقصيدة الاولى ـ على سبيل المثال ـ تصور بأسى كثيرا من المشاهد الخرساء ـ الجذور التي تناوه ، الجديلة التي تتخاصم عليها الرياح ، والمقعدون الضائعون ، حتى ظلهم قد ضاع ايضا على الحوائط السوداء ، والذكريات الكئيبة ، والبذور الحزينة ، والنظرات الحسيرة، والسروة الذابلة ، والاحلام المقبورة .

ومع تكدس هذه المشاهد الكئيبة فانها تتطلع الى الربيع الباسم المشمس ليمسح عنها الآلام والاحزان ، لكن هذا التطلع ـ حتى مجرد التطلع ـ يموت في نهاية القصيدة :

لكننا هناك مقعدون ضاع ظلنا
على الحوائط الكئيبة السوداء
قد ننشد الالوان والضياء
لكننا وفي انتظار من مضوا
نظل قابعين عاجزين في حديقة الشتاء

وقد كان من الممكن ان تنتهي القصيدة قبل هذا المقطع الاخير بعد ان قدمت تبريرا لكل تلك الاحزان بانتظار من مضوا من الاهل والرفاق، والتطلع الى الربيع وعطائه الوافر من الجمال والسلام ، والتودد اليه بالخجل والمعذرة فرارا من اللوم والتانيب لكن القصيدة استسلمت مرة أخرى لبروح الكآبة والعجز التي سيطرت عليها منذ البداية ففطى نشيجها الاخير على التبرير والرجاء والمعذرة دون مقتض فني ذي قيمة .

وهنا ينبغي فهم احساس (الخوف) الذي يواجهنا اكثر من مرة في قصائد الديوان ، فهناك فرق بين الحديث عن الخوف كاحساس فردي قائل غائم الاسباب ، وبين الحديث عن الخوف كاحساس اجتماعي ممتد نتيجة ظروف متخلفة كالقمع والقهر والتمزق بين المظهر والحقيقة، وغلبة الغوغاء والجهال والسفهاء بالتحكم في قيم الناس بالطغيان والجبروت « حينئذ يوجد الخوف ، وهو خوف معروف الاسباب والظروف والحديث عنه شجاعة والتزام ، وهذا النوع الاخير هو الذي جاء في الديوان :

حين كذبنا خفنا
وفرحنا بهدايانا من سوق الزيف
هذا قدر الكذابين
الخوف .. الخوف

والكذب هنا كذب السلوك والكلام والقيم والناس ، والاشياء، حتى الاشياء كاذبة !!

جوقة مظهرية مهرجة باطشة خلفها يغشش الخوف الاجتماعي المدمر .

ـ ٤ ـ

لا ادري لم فضل الشاعر ان يسمي ديوانه (حديقة الشتاء) وكان الاولى أن يسميه (حديقة الشعب) فان أروع ما في هذه الحديقة من اشجار وثمار وازهار انما هو للشعب ومن اجل الشعب .

ان هذا الديوان يعد وثيقة ادانة حقيقية لشعبنا وجيلنا ، فهو شعب مظلوم مقهور ، ولكنه هو الذي ظلم نفسه ، انه هو الذي نسج الظلام بيده ، وهو الذي بنى حوائط سجنه وقضبانه ، ثم سجن حياته وحريته فيه ، وزاد فاقام من نفسه سجانا يراقب القضبان ويجلد الحرية .

ان الشاعر ينتقل بنا من موقع لموقع آخر ، ويظل معنا في كل موقع على العدو الرهيب الذي يقتال امننا وحريتنا ، ويستنزف حيويتنا ، ثم يشير ويلوح ويضرب الارض برأسه وقدميه ويلون صوته بالهمس او بالصراخ ، وبالافهام او بالوعيد ، وبالكلام الهادىء او بالنشيج المخنوق باللفظة والصورة والمشهد الكامل ، كل ذلك ليضع ايدينا على جراحنا التي تنزف ، ويطلعنا على سر المأساة التي قادت جيلنا للضياع والهزيمة، ونخبت منه لباب وجوده لتتركه خاويا شاحبا تتخطفه الانواء والاعاصير .. أضعف الاعاصير .

وهو يلح بصفة خاصة على اثمن قضايا الشعب وهي « الحرية » ولكن اي حرية !! الحرية في مختلف اشكالها وصورها ، الحرية من الغزاة ومن القهر والطغيان ومن اسار ضعفنا وانانيتنا وكذبنا ونفاقنا ، فالحرية التي يقف « ابو سنة » في صفها هي حرية الشعب كله ، وهي حرية تبدو في كثير من القصائد مقهورة مصلوبة بل مفقودة ، وهو يقف مع صاحب الحق فيها ـ الشعب ـ فيلوح بيده مهددا الطغاة الذين أقاموا (الخوف حارس السلطان) مبينا عاقبة الظلم ومداه ، وهو ايضا يتجول بين اولئك الذين سلبت منهم ، فيكشف عارهم وضعفهم وقبحهم ، وكأنما يقول لهم : انتم لا تستحقون الشفقة ، بل الاحتقار ، فالانسان بلا حرية خائف ، مهزوم ، موات ، وهو بالحرية شجاع ، منتصر ، حي .

ومن ابرز قصائد الديوان التي يتجول فيها الشاعر بين الشعب وحريته (غزاة مدينتنا ـ الصرخة والخوف ـ عنكبوت اللحظة السوداء ـ حلم ملكي ـ المبارزة ـ المحاكمة ـ لا ـ اسطورة بطل تراجيدي) .

فلنقرأ قصيدة واحدة قصيرة هي (المحاكمة) تقول :

يا سادتي
قد فض مأتم العزاء
فالميت الذي دفنتموه
قد قام يطلب المحاكمة
ذو المعطف السميك
يقول : انه القضاء والقدر
وبائع الخمور قال : انها الحظوظ والمصادفة
وقارىء الكتب
يقول : لم ترد حكايته
وقال ماسح الحذاء
قد كنت غائبا
ونظرتي قصيرة ولا تجاوز الجدار
لم يكشف الستار مرة لكي أرى
لم يكشف الستار
وقال زارع الحقول
الله يبعث البلاء
لكي يطهر العباد
من آفة الفساد
وقال آخرون : انها جريمته
تاريخه القيام والوقوع
وظل طول عمره لا يرفض الخضوع
الخوف قد أذله والجوع
يا سادتي
ما رأيكم في الميت الذي دفنتموه
تحاولون ان تنسوه
يقول : أنكم جميعكم خدعتموه

فهذه محاكمة من نوع غريب ، ينصب سوقها ميت مظلوم ، يقوم من جدثه بعد ان مات وشبع موتا وانفض العزاء عن مأتمه ، حينئذ ينتصب شبحه امام ظالميه الذين تقبلوا العزاء في مأتمه ويطالب بتحديد المسؤولية والادانة، فيبحث كل منهم عن تعلة كاذبة يحيل عليها مسؤولية ظلمه ، ولكنه يأخذ بخناقهم جميعا ، ويضعهم في قفص الاتهام بعد ان وصمهم بالكذب والضعف والخداع .

والميت في هذه القصيدة ربما كان رمزا لحيوية الشعب وايجابيته كلها التي ضمرت ثم جفت وربما كان رمزا لحريته ونخوته التي تخدرت ثم استنزفت ، وربما كان رمزا لغير هذا وذاك من قيم الشعب وحيواته، واولئك الذين جلسوا في مأتمه هم أنفسهم الذين أودوا به ، انهم فئات الشعب كله ، الرأسماليون والتجار والمثقفون وابناء البلد والفلاحون والعجيب ان كلا منهم يحاول ابعاد التهمة عن نفسه ، ليتحملها عنه القدر

او الحظ او الجهل او الابتلاء او استحقاق الجزاء للضعف والخنوع ، ولكن الامر في حقيقته غير ذلك كله ، ان هؤلاء الذين يبعدون التهمة عن انفسهم ليقذفوا بها هنا وهناك هم وحدهم المدانون المذلون المهانون بضعفهم وكذبهم وانانيتهم ، تدينهم القيم المهدرة والحرية المضاعة ، وهي قيمهم وحريتهم ، وما ظلمهم احد ، ولكنهم ظلموا انفسهم .

لكن ينبغي ان يفسر هنا الاسلوب الفني الذي لجا اليه الشاعر في عرض ذلك المضمون الناضج في قصائده الوطنية ، فاهم ما يميز هذه القصائد عموما الصفتان التاليتان :

١ ـ التجريد الذهني حتى فيما لجا اليه من رمز .

٢ ـ تكدس الصور اللغوية واللجوء احيانا الى اللهجة الخطابية.

ان شاعرنا يتصور موضوع القصيدة كفكرة تجريدية ، فيرتبها ذهنيا ثم يلبسها ثوب الشعر اذ يتعلق بالمعنى المجرد ، ثم يغنيه شعرا ، تماما كما لو كان المرء امام فكرة عقلية يريد شرحها لقارئه او سامعه ، وكل الفرق بين الطريقتين هو في استخدام الصورة في الشعر والكلام الموضوعي المساوي في نقل الفكرة نثرا ، « فابو سنة » يتعشق افكارا مجردة عن حياة الشعب وسلوكه واخلاقه ، لكنه لا يقدم في شعره صورا من حياة الشعب النابضة الغنية ، فينقلها حية متحركة مؤثرة ، فتدل على ما يريد دون ان يقوله هو ، ولذلك كانت معظم قصائده الوطنية تاملا عاما لا نماذج حية ، وتجريدا لا حركة ، وفكرة عقلية تفهم لا صورة نابضة تنمو ، وبعد ان يشرح فكرته بالشعر يصيح في آخرها بصوت جهير مصرحا بهدفه منها .

فقصيدة (الفدائي ص ٧٤) ليست صورة بطل في مغامرة يتسلل ويغافل ويهجم بما يصحب ذلك من مخاطرة ورعب ومفاجآت واستشهاد، بل هي حديث عن « معاني الفداء » على لسانه ـ او بالاصح على لسان الشاعر ـ فيقول : انه امتلك مصيره بشجاعته ، وان للمغامرة والخطر لذة اي لذة ، وحين يموت سيحتفي به الاسلاف الذين استشهدوا قبله، ليختم القصيدة بصيحة الفدائي بهدف القصيدة :

لا تشفقوا عليّ
فها انا الذي خسرت قد كسبت كل شيء

وفي قصيدة اخرى بعنوان (لا : ص ٩٧) تعرض فكرة مؤداها : ان الراي الحر عنوان الشموخ وان الاستسلام دليل الخنوع ، وتجلد بقسوة خسة الاحساس الاخير ـ الاستسلام ـ وتسمه بانه ذلة سببها خوفنا ، وانه يؤدي لاستعلاء الآخرين على حسابنا وجناية على الاجيال بعدنا ، لتنتهي القصيدة بهدفها في :

الا اذا رفعتم الجباه في طريقهم
السيف في وجوههم
وان نقول في شجاعة المقاتلين : لا

فالذي يتحدث هنا هو الشاعر نفسه بطريقة تجريدية يعبر بها عن فكرته ، وكان من الممكن مثلا ان يقدم صورة حية من صور الشموخ من اولئك المعذبين من شعبنا الذين يتحملون في جلد آلامهم ، ويبصقون في وجوه جلاديهم ، فنحس ساعة سقوطهم وموتهم انهم في قمة الانتصار ، وانهم اعظم قدرا ممن اضطهدوهم .

وحتى عندما لجا شاعرنا الى الرمز ـ وهو في قصائد قليلة ـ استخدم ايضا رموزا من صنعه ، ثم رتبها ذهنيا لتقول ما يريد ، كقصيدة (المحاكمة) التي مر ذكرها وايضا آخر قصائد الديوان (مأساة بطل تراجيدي) ، فلم يختر مثلا رموزا من التاريخ او الاساطير الدينية او الشعبية لتشف بعرضها شعرا على ما يريد الشاعر دون ان يصرح به.

وخلاصة هذه الفكرة كلها ان قصائد الشاعر الوطنية ـ في معظمها ـ تشرح افكارا تجريدية بطريقة مفروضة من الخارج ـ من الشاعر ـ دون ان تدل بنفسها على المقصود عن طريق الشفافية والايحاء.

وقد ترتب على ذلك ـ وبسببه ـ ان لجا الشاعر كثيرا الى حشد الصور اللغوية ـ التي قد تصل احيانا الى عشرة ابيات ـ حول المعنى الواحد ، دون ان تبني شيئا جديدا او تنمية في القصيدة انها اشبه « بالترادفات اللفظية » وان كانت صورا شعرية ، وهي دليل على البراعة اللغوية لا اكثر ـ وفي الديوان حشد هائل من هذه الصور ، ولنتامل هذه الابيات :

وتساءلنا
أي غزاة جاءوا في منتصف الليل
رجعوا بالاشجار بعيدا عن مجرى النهر
هدموا أعمدة الضوء
رحلوا بالازهار الى مقبرة وحشية
وضعوا سيفا بين شفاه تدنو من عنقود القبلات
داسوا بالخيل جبين المعبد
طردوا منه الصلوات
صرخوا في وجه الفجر

فبعد البيتين الاولين تكدست سبع صور تدل على (الدمار والخراب للمدينة) لكن كل تلك الصور لم تقدم نموا لتجربة القصيدة او بنائها ، فبقيت الفكرة واحدة تدور في اطار لغوي فقط .

كما ترتب على الافكار التجريدية ايضا ان لجا الشاعر احيانا الى لهجة خطابية « عنترية » لا تتفق مع طبيعة الشعر الجديد الذي يسري الى الروح في رفق ، وينساب ساكنا كالضوء بعد ان تخلص ـ كما قالوا ـ من ضجة الاوزان والقوافي في الشعر القديم ، ومن علو الصوت للالقاء في المحافل والجموع ، فمن لوازم الخطابة الانفعال والصخب واستخدام ادوات التوكيد والامر والنهي بصورة اليقين والحسم والزجر ، والتجربة الشعرية الجادة الرصينة لا حاجة بها الى تلك اللهجة التي انزلقت اليها احيانا بعض مقطوعات من قصائد الديوان ، فلنتامل هذا المقطع في نهاية قصيدة (الجثة الحمراء ص ٩٤) :

فلتخرج الرياح من مغارة الدخان

كتب جديدة صدرت عن

دار العودة ـ بيروت

عيون الكلاب الميتة (شعر) عبد الوهاب البياتي
كتابة على ضوء بندقية (شعر) محمود درويش
طلب انتساب للحزب (شعر) سميح القاسم
قراقاش (مسرحية شعرية) سميح القاسم
احزان افريقيا (مسرحية شعرية) محمد الفيتوري
معزوفة لدرويش متجول (شعر) محمد الفيتوري
الادب والادب الشعبي الفلسطيني (دراسة) توفيق زياد
نداء الجراح (شعر) حنا ابو حنا (رائد شعر المقاومة) في الارض المحتلة
الشارع الاصفر (قصص من الارض المحتلة) توفيق فياض
اغنية الى يافا (شعر) سيد احمد الجردلو
موسم الهجرة للشمال (رواية) الطيب صالح
عرس الزين (رواية) ـ الطيب الصالح ـ الطبعة الثالثة

تطلب من دار العودة : شارع مار منصور ـ عمارة بنك بيروت والبلاد العربية ـ تلفون : ٢٣٦٤٠٧

وليقبل الفرسان
لا تركبوا الخيول ان تناسلت من الكلاب
ولا تعلقوا تعويذة الجبان
على جبين هذه المدينة الكثيرة الاعداء
ولتخرج الغربان من نوافذ القلوب
لتصدح الطيور بالغناء
فلتخبروا الاطفال والنساء
بالكف عن اذاعة الرثاء

فقد نصب الشاعر مهرجانا للشهيد ، ووقف يخطب في هذا المهرجان آمرا وناهيا وزاجرا وداعيا للغارات والفرسان والخيول والغربان والطيور والاطفال والنساء ، مع ان تجربة « الشهادة » لو جاءت في مشهد مواطن عادي يموت في موقف الحفاظ على الارض او المبدأ او الحرية ميتة عادية مؤثرة ، لعمقت في نفوسنا اعتزازا به وباستشهاده اقوى كثيرا من هذه الطريقة الخطابية الزاعقة .

— ٥ —

من افدح الاخطار التي تهدد الشعر الجديد اليوم ما يعود الى اللغة والوزن ، فبعض من يحترفون هذا الشكل الجديد يجهلون هذين الامرين جهلا شائنا ، فيخرجون على ما يطلق عليه « منطق اللغة » ويقصد به صحة مبنى الالفاظ ومعانيها ، فيستخدمون اشتقاقات غريبة، حروفها عربية وصورتها لا هي عربية ولا اجنبية، او يستخدمون الكلمات العربية بمعان بعيدة كل البعد عن مفهومها الحقيقي ، او يستخدمون جملا كاملة معناها في « بطن الشاعر » فقط لاختلال التركيب والاعراب فيها ، او يستخدمون عبارات كاملة « توليفة » مفهومها غامض غموضا يصل الى حد الاحالة تحت اسم الصور او الرمز او ما شئت من الافتراءات ، ناهيك بمن يخرجون عن الوزن العروضي تماما ، او يخلطون بين التفاعيل بطريقة صبيانية رديئة يضج منها الخليل ونازك وكل علماء العروض في القديم والحديث .

ما علينا .. فلهذا حديث آخر ، والمهم هنا ان ديوان (حديقة الشتاء) يكاد يخلو من تلك العيوب تماما ، فهو يستخدم الالفاظ بطريقة سليمة واضحة ، وهو يبني جملة خالية من الاضطرابات والخطأ ، وصورة محكمة متماسكة لا غموض فيها ولا احالة إلا ما ندر ، ومن هذا النادر ص ٢٩ :

هل كان القمر صديقا للاشباح
من أوقف زحف الوردة نحو النجم

فالصورة في البيت الاول غامضة ، وفي الثاني بعيدة عن التصور ص ٣٢ (عن الحرية) :

حطت صرختك الوردية
فوق ملايين الاشجار

فالصرخة هنا صرخة الحرية الذبيحة ، فهي صرخة الرعب او الالم، لكنها غير « وردية » على كل حال .

ص ٩٨ :

لاننا نضم في صدورنا
عزائما في رقة البخار

فهو يقصد بذلك « عزائم خائرة منهوكة » والبخار ليس كذلك ، فهو قوي جدا ، قوة تسير بها القطارات والسفن والطائرات ، فليت لنا مثل هذه العزائم يا صديقي !!

وبعد

فلعلني قد استطعت ان افهم ما قرأت ، وان افسر ما فهمت ، وان اقدم لقارىء هذا الديوان من بعدي ما يهديه بين مروجه وادغاله .

القاهرة — محمد عبد

وجه أمي والسفر

صوتك الدافىء يخضرّ على ارصفة المنفى ،
وفي غابات احزاني يحبو
كلما ألقيت مرساتي بميناء اغتراب
شدّني للوطن النائم
في قلبي جرحا
وطني المزروع
في اقبية التاريخ رمحا
دونه الغربة تمتد على صمت خطاي
— لاهثا — أعبر جسر العالم المنهار ، أجثو
في انتظار القمر المصلوب — خفاشا —
على بوابة الليل ،
ادقّ الحجر النابت
في وجهي جدار
ويرنّ الصوت ....
يرتدّ الصدى :
« بابل شاخت
بابل في معصم الريح سوار
وخضاب دمها
بيع بأعراس التتار
فلمن توقد في صومعة الذكر
شموع النذر
تجترّ انتظاراتك في قاع المغار ؟ »
لدمي النائم في عروة صدر الارض
حنّاء لاعراس التراب
لدمي كل انتظاراتي ،
شموعي ،
ابجدياتي الكئيبه
لدمي اهتف باسم الجرح
في أروقة الصمت — وصوتي
مطر يلهب أعناق السحاب —
حاملا جمجمتي في طرق العمر حقيبه
ملؤها كل متاعي :
وجهها المطلي (بالنابالم)
وجهي المستباح
وجه أمي :
دامع العينين ،
مصلوبا على كف الرياح

بغداد — عبد الخالق الركابي